دفاعٌ عن الوحي ضدَّ منتقديه

محمد بهاء الدين حسين أحمد *

مُقدِّمة

أجمع العلماء المسلمون على أنَّ الوحي هو أهم مصدر من مصادر المعرفة للإنسان المؤمن، بلغه النبي المعصوم من الخطأ، المؤيد بالمعجزة القطعية الدالة على صدقه فيما يبلغه ويخبر به ويتحدث عنه، سواء كان ذلك متعلقاً بعالم الغيب أو بعالم الشهادة، وهذه المعجزة التي يظهرها الله على يد نبي، أو رسول تُعدُّ شهادة منه تعالى عالم الغيب والشهادة على أنَّ هذا الإنسان النبي، أو الرسول صادق في كل ما يبلغه عن الله تعالى، وبالتالي مأمور الطاعة، واجب الاتباع والتصديق.

إنَّ هذا الوحي الذي يتلقاه الإنسان من ربه يكشف له حقائق ما كان ليصل إليها بدونه معتمداً على وسائل المعرفة الأخرى المتوفرة لديه.

والعقل عند علماء المسلمين هو مصدر آخر من مصادر المعرفة لدى الإنسان، وهو يستطيع به كشف أنواع من الحقائق، وكذلك الحس هو مصدر آخر عندهم

* دكتوراه من جامعة بغداد في الدراسات القرآنية والحديثية، وأستاذ مشارك بقسم الدراسات القرآنية والحديثية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

للمعرفة، وهو الذي يهيء للعقل مادة المعرفة عن طريق المدركات الحسية، فيرى العلماء المسلمون أنّه باستطاعة الإنسان من خلال هذه الوسائل للمعرفة "الوحي والعقل والحس" تحصيل علم صحيح، وينطلق علماء المسلمين في رؤيتهم هذه في تحديد وسائل المعرفة من القرآن الكريم الذي جمع بين طرق المعرفة الثلاث معاً في آياته، والذي جمع أيضاً بين مجالي المعرفة وهما مجالا الوجود: الدنيا والآخرة، أو عالم الغيب والشهادة في آية واحدة هي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ {يوسف: ١٠٩}. فالقرآن الكريم قد ذكر وسائل المعرفة من وحي وإلهام وحواس وعقل أو قلب، فيقول في ذلك: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، كما ذكر أَنَّ مصدر المعرفة أو منبعها هو الله تعالى: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ {العلق: ١-٥}.

كما تعرض القرآن لطبيعة المعرفة، فذكر أنّها اكتسابية كلها إلاّ ما يأتي عن طريق الوحي إلى الأنبياء: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ {النحل:٧٨}، كما أنّه دعا الإنسان إلى تحرير عقله من التبعية والتقليد، فقال في سورة الحج، آية ٤٦: ﴿أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

لكن هذه المصادر ليست في درجة واحدة في هداية الإنسان إلى معرفة الحقائق والعلوم، فهداية الوحي أصدق وأثبت من هداية العقل لأنّه من الله تعالى عالم الغيب والشهادة الذي يحيط بكل شيء علماً قديماً مطلقاً، أمّا علم الإنسان عن طريق عقله، فهو علم محدث نسبي محدود، لذا فالعقل نور ولكنه بحاجة إلى نور آخر ليسترشد به إلى معرفة كثير من القضايا وهو نور الوحي، لأنَّ العقل يعتمد في كسب المعارف على الحواس التي تتعرض للخطأ أحياناً، يقول في ذلك الإمام الغزالي رحمه الله: "إنَّ أقوى الحواس ـ وهو البصر ـ تتعرض للخطأ، فتحسب الظل ساكناً وتحكم بنفي الحركة عنه وهو في الواقع يتحرك، كما أثبتت ذلك المشاهدة والتجربة، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار، في حين أن الأدلة الهندسية تدل على أنّه أكبر من الأرض بمقدار".[١]

---

١ أبو حامد الغزالي: **المنقذ من الضلال**، مع أبحاث في التصوف للدكتور عبد الحليم محمود (القاهرة: مطبعة حسان، د. ط، ت) ص٨١.

فالحواس إذاً غير مأمونة من الخطأ، فمن يأمن من العقل أن يخطئ وهو يعتمد على الحواس، وما يأتيه منها فيركب مقدمات مما جاءه منها، فيحسبه أحياناً من اليقينيات وهو من الظنيات، فيخطئ العقل في الاستنتاج واستخلاص النتائج منها.

أمَّا مصادر المعرفة لدى غير المسلمين فقد اختلفت حولها الأنظار، وتباينت حولها الأفكار فتعددت فيها المذاهب، والتيارات الفكرية واحتدم بين أصحابها النقاش والجدل، حيث يرى العقليون أنَّ العقل هو المصدر الأول للمعرفة ويعطونه كل الدور في كسب المعارف إذ المعارف عندهم مبادئ فطرية قبْلية - A Priori فلا تسمى كسبية — Posteriori، في حين يرفض أصحاب الفلسفات الواقعية الذين ينكرون اعتبار العقل أداة للمعرفة هذا التوجُّه، وهكذا يرفض أصحاب الوجودية دور العقل ومقدرته على إدراك التجربة الإنسانية الحية، والإلمام بعلاقة الإنسان بالكون. أمَّا أصحاب النزعة العلمية فيتجهون إلى القول بأن معرفة الحقائق لا تكون إلاَّ في دائرة العلم الطبيعي وحده القائم على التجربة.

أمَّا الباحثون في الفلسفة المعاصرة فقد انحصرت مصادر المعرفة لديهم في العقل والحس والحدس، وعلى هذا الأساس انقسموا إلى عقليين وحسيين وحدسيين. وهكذا نجد اختلاف وجهات النظر وتباين المواقف وتعدد المذاهب لدى غير المسلمين في تحديد وتشخيص مصادر المعرفة الإنسانية، لذا تأتي هذه الدراسة لتؤكد أصالة الموقف الإسلامي من مصادر المعرفة الإنسانية، وأنَّ الوحي الإلهي بواسطة الأنبياء والمرسلين إنَّما يمثل أهم تلك المصادر وأقواها، ولتناقش مفهوم ظاهرة الوحي لدى غير المسلمين، وموقفهم منها بوصفها مصدراً من مصادر المعرفة، ورد الشبهات المثارة حولها.

تعريف الوحي لغة واصطلاحاً

الوحي لغة: ذكر اللغويون لكلمة الوحي معاني كثيرة منها: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والكلام، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه... ثُمَّ غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله تعالى.[٢]

---

[٢] ابن منظور الإفريقي: **لسان العرب**، إعداد وتصنيف يوسف الخياط (بيروت: دار لسان العرب، د. ط، ت) مادة (وحي)، ٣/٨٩٣. والرازي: **مختار الصحاح** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص٢١٣. والزمخشري: **أساس البلاغة** (بيروت: دار صادر، د. ط، ت) ص٦٦٨. والفيومي: **المصباح المنير** (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٣٤٢هـ) ٢/٣٢٧.

قال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، وذلك بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحي.[٣]

قال الإمام محمَّد عبده: "وقيل الوحي إعلام في خفاء، ويطلق ويراد به الموحى"[٤]، ويقول السيد محمَّد رشيد رضا: "القول الجامع في معنى الوحي اللغوي: إنّه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة كالوحي إلى أم موسى، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان. ووحي الله إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة.[٥]

نفهم مما سبق من المعاني اللغوية لمادة (وحي) أنَّ الوحي يتضمن في جملة ما يتضمنه من معانيه اللغوية الإعلام الخفي السريع.

الوحي اصطلاحاً

قد وردت عدة تعاريف للوحي بمعناه الاصطلاحي، وهي وإن اختلفت في ألفاظها، فإنها تكاد تتفق في معانيها ومضامينها، منها: الوحي "هو إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر".[٦]

وقال الإمام محمَّد عبده في تعريفه له: "قد عرفوه شرعاً بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه، أمَّا نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأنه وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور".[٧]

---

٣ الراغب الأصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمَّد سيِّد كيلاني (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأخيرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م) مادة (وحي)، ص٥١٥.

٤ محمَّد عبده: **رسالة التوحيد** (القاهرة: مكتبة الجامعة الأزهرية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م) ص٥٧.

٥ محمَّد رشيد رضا: **الوحي المحمدي** (بيروت: المكتب الإسلامي، د. ط، ت) ص٤٤.

٦ عبد العظيم الزرقاني: **مناهل العرفان** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ت) ص٥٦.

٧ **رسالة التوحيد**، ص٥٧.

ومن تعاريفه: الوحي هو ما أنزل الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم، ومنهم من أعطاه كتاباً أي تشريعاً يكتب، ومنهم من لم يعطه".٨

ومنها: أنَّ الوحي شرعاً إلقاء الكلام، أو المعنى في نفس الرسول بخفاء وسرعة، ومن هنا كان معنى الوحي في الشرع أخصّ منه في اللغة، إذ المصدر الموحي هو الله سبحانه وتعالى، والجهة الموحى إليهم هم الرسل".٩

وقد عرفه السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٩٨٢م) بأنه "إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير قصد من قصد إفهامه، فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي، وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا، أو من طريق الوسوسة، أو بالإشارة، فكل ذلك وحي".١٠

ولا نسلم للشيخ ما أدخله من الوسوسة في الوحي، فإن الوسوسة تصدق على وساوس الشيطان التي عرفها بنفسه بأنها (قول وكلام، ولكن لا يخرج عن شق فم ولا تحريك لسان)١١، فكيف يميز بينها وبين حقيقة الوحي؟ وقد وقع الشيخ في متاهات النسيان عندما شرع في تفسير سورة الناس، فانشغل بتعريف الوسوسة ناسياً ما قاله عن تعريف الوحي، إذ عدّ الوسوسة من تأثيرات الشيطان التي متعلقها مبدأ الإدراك من الإنسان!١٢؛ فكيف تُميز عن الوحي التي متعلقها مبدأ الإدراك كذلك؟

فالوحي بالمعنى الاصطلاحي لا يخلو من كونه إعلاماً خفياً من جهة الله سبحانه وتعالى إلى نبي من أنبيائه وإن اختلفت وسائل هذا الإعلام، وأنَّ النبي الموحى إليه يجد في نفسه اليقين والجزم بأنه من عند الله تعالى سواء أكان هذا الوحي بواسطة أم بغير واسطة، بصوت أو بغير صوت، ويتم بسرعة. والوحي ركن أساس للنبوة، وتميز به كل نبي عن غيره من الناس، فلا تكون نبوة ولا رسالة سماوية بدونه، وإنَّ جميع الأنبياء ابتداءً بآدم عليه السلام، وانتهاءً بمحمَّد ﷺ خاتم الأنبياء قد تلقوه من لدن العليم الحكيم.

---

٨ **الوحي المحمدي**، ص٤٤.

٩ حسن ضياء عتر: **نبوة محمَّد في القرآن** (حلب: دار النصر، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ص١٦٥.

١٠ الطباطبائي، محمد حسين: **الميزان في تفسير القرآن** (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط٣، ١٩٧٣م) ١٢/٤٩٢.

١١ نفسه، ٣/١٨١.

١٢ نفسه، ٢٠/٣٩٧.

فالوحي في المفهوم الإسلامي الصحيح إنّما هو ظاهرة روحية خصّ الله بها مَن اصطفاهم للنبوة ـ وبه يكون اتصالهم با لله تعالى من غير حلول ولا اتحاد ـ ليكلفهم إبلاغ تعاليمه للناس، وبذلك يختلف مفهوم الوحي في الفكر الإسلامي عن مفهومه في الفكر النصراني، إذ النصرانية تفهم الوحي على أنّه حلول روح الله في روح المُوحَى إليه، فلم تؤلّه المسيح إلاّ بهذا الحلول لأنَّ مَن حلَّ فيه روح الله صار إلهاً، وهو ما ينفيه الإسلام نفياً مطلقاً فا لله سبحانه لا يحل في غيره كما لا يحل غيره فيه.[١٣]

إنَّ أية نظرة إلى الوحي بغير المفهوم الإسلامي تأتي بنتائج خاطئة مرفوضة لأنّها لا تنبني على أية أسس عقلية ومنطقية كنظرة بعض المستشرقين إليه وإلى النبوَّة، وتحدثه عنهما كما يتحدث الناس عن الدروشة والدراويش، أو كما يتحدث علماء النفس عن أبطال التاريخ، وعظماء الرجال، وقادة الثورات، أو عما ينفرد به بعض الناس من خصائص العيون والآذان الداخلية يلتقطون بها ما لا يتمكن الإنسان العادي من سماعه أو رؤيته.

أنواع الوحي وكيفياته

الوحي يتم على صور مختلفة كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أَو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.[١٤]

فصور الوحي هي:

١. إمّا أن يكون في المنام، لأنَّ رؤيا الأنبياء حقّ، كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وكما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

٢. وإمّا أن يكون بالإلهام، كما حدث لأمِّ موسى عليه السلام ﴿وَأَوحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

٣. وإمّا أن يكون بالكلام من وراء حجاب، كما حدث لموسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾.

٤. وإمّا أن يكون بإرسال ملك ترى ذاته ويُسمع كلامه، كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي ﷺ الوحي في صورة معينة، وتبليغ جبريل دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَو يُرْسِلَ رَسُولاً﴾.

---

[١٣] التهامي النقرة: **مناهج المستشرقين** (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، د. ط، ت) ٢٧/١.

[١٤] الشورى: ٥١.

إنَّ هذه الصورة الأخيرة من أشهر صوره وأكثرها وقوعاً، وإنَّ وحي القرآن كله قد وقع على هذه الصورة، وهي المصطلح عليها بالوحي الجليّ، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِيْنُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ﴾.

أمَّا كيفيات الوحي كما وقع لنبينا ﷺ فقد وردت الأخبار الصحيحة بها فيما يأتي بيانها:

١. أن يأتيه الملك فيسمع مثل صلصلة الجرس، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة، منها ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: سألت النبي ﷺ هل تحسُّ بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل ثُمَّ أسكت عند ذلك، فما من مرة يُوحى إليَّ إلاَّ ظننت أنَّ نفسي تُقبض. قال الخطابي: والمراد أنّه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد.[١٥]

٢. أن يُنفث في روعه ـ أي قلبه ـ نفثاً كما قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ روح القُدُس نفث في روعي".

٣. أن يأتيه الملك يتمثل رجلاً فيكلمه، كما في الخبر الصحيح: "وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"، وفي رواية" وهو أهونه عليّ".

٤. أن يأتيه في النوم.

٥. أن يكلمه الله إمَّا في اليقظة كما في ليلة الإسراء، أو في المنام كما في حديث معاذ: "أتاني ربي فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ ... الحديث"، وليس في القرآن شيء من هذا القبيل.

يقول العسقلاني عن العلم بكيفية الوحي من حيث تلقي الملك إياه من الله تعالى وطريق تسلُّمه وتسليمه: "العلم بكيفية الوحي سرّ من الأسرار التي لا يدرك كيفيتها العقل، وسماع الملك من الله تعالى ليس بحرف أو صوت، بل يخلق الله تعالى للسامع علماً ضرورياً، فكما أنَّ كلامه ليس من جنس كلام البشر فسماعه الذي يخلقه لعبده ليس من جنس سماع الأصوات".[١٦]

---

[١٥] جلال الدين السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن** (بيروت: المكتبة الثقافية، د. ط، ١٩٧٣م) ١/٤٤ وما بعدها. و: طاش كبري زاده: **مفتاح السعادة**، تحقيق: كامل بكر وعبد الوهاب أبو النور (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ط، ت) ٢/٣٩١.

[١٦] أحمد بن حجر العسقلاني: **إرشاد الساري إلى صحيح البخاري** (مصر: المطبعة الأميرية ببولاق، ط٦، ١٣٠٤هـ) ١/٥٩.

طريق تلقي الرسول الوحي واندماجه بالملك

هناك طريقان تلقّى بهما الرسول الوحي من الملك واندمج به:

١. انخلاع الرسول ﷺ من صورة البشرية إلى صورة الملكية ثُمَّ أخذه من الملك.

٢. تمثُّل الملك بصورة البشرية وانخلاعه من صورته الحقيقية حتى يأخذه الرسول ﷺ، والأول أصعب الحالتين على الرسول.[١٧]

يتحدث العسقلاني عن الصعوبة والشدة التي تعتري الرسول في أثناء تلقيه الوحي في هاتين الحالتين قائلاً: "وفي حالتي الوحي على الجبلة البشرية صعوبة وشدة، ولذا كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف، لأنَّ الوحي مفارقة البشرية إلى الملكية فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها، وقد يفضي بالتدريج شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالنظر لما قبله، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن وسوره وآياته حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة".[١٨]

ظاهرة الوحي والعقل

من الحقائق الواضحة أنَّ العقل مصدر أساس من مصادر الإدراك والمعرفة لدى الإنسان، ولا ينكر هذه الحقيقة إلاَّ مكابر أو معاند، إذ به يعرف وجود صانع هذا الكون ومدبره، وإليه يعود الفضل في اكتشاف معظم ما نجهله، وأنه ليس لمصادر المعرفة الأخرى دور في اكتساب المعارف بصورة دقيقة ما لم يشاطرها العقل، لكن مع ذلك يبقى دور العقل وقدرته محدودة في معرفة القضايا الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة)، نعم سيبقى دوره محدوداً في هذا المجال لأَنَّ الدور الأساس في معرفة هذه القضايا يعود إلى الوحي والخبر الصادق الصادر من الإنسان المعصوم الذي اختير لتلقي الوحي الإلهي، لأنَّ هذه القضايا فوق مستوى العقل البشري وإدراكه بصورة صحيحة. وبما أنَّ الوحي يخص عالم الغيب فإنه مما يصعب على العقل إدراكه، لذا كان من أخطر أسباب الانحراف والضلال تقديس العقل البشري وإعطاؤه السلطان والدور إلى درجة أنّه الدليل الذي لا يخطئ، وله الحكم في كل قضية وفي كل مجال وإن لم يكن من اختصاصه ولا في حدود قدرته؛ ولهذا نجد

---

١٧ الزركشي: **البرهان في علوم القرآن**، ١/٢٩٠ وما بعدها. و**إرشاد الساري إلى صحيح البخاري**، ١/٥٩. و**الإتقان** للسيوطي، ١/٤٣.

١٨ **إرشاد الساري**، ١/٦٠-٦١.

عامة المبتدعين والمنحرفين قديماً وحديثاً يشتركون في هذه الفكرة السائدة لديهم، وهي تقديم العقل البشري على نصّ الوحي الإلهي، فهذا عمدتهم وقاعدتهم التي إليها يستندون وعليها يعتمدون، وهو المقدم عندهم والمفضل لديهم بحيث يتهمون الأدلة الشرعية إذا لم توافق عقولهم، ولا يتهمون عقولهم.

يقول الإمام الشاطبي في الاعتصام: "وقد علمت أيها الناظر أنّه ليس كل ما يقضي به العقل يكون حقاً، ولذا تراهم يرتضون اليوم مذهباً ويرجعون عنه غداً، ثُمَّ يصيرون بعد غد إلى رأي ثالث، ولو كان كلّ ما يقضي به حقاً لكفى في معاش الخلق ومعادهم، ولم يكن لبعثة الرسل - عليهم السلام - فائدة ولكان - على هذا الأصل - تعد الرسالة عبثاً لا معنى لها، وهو كلّه باطل، فما أدى إليه باطل".[١٩]

مع كل ما سبق لو استفتينا العقل نفسه في إمكانية حصوله لأجابنا بأنه ممكن، وأنه أمر غير مستحيل في حدّ ذاته.

يقول الإمام محمَّد عبده عن إمكانية الوحي عقلاً:

"أمَّا إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصهم الله بذلك، وسهولة فهمه بالعقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلاّ على من لا يريد أن يدرك، ويجب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم". ثُمَّ يردف ذلك قوله: "أيُّ استحالة في الوحي، وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات، مع العلم أنَّ ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر، متى حفت العناية مَن ميزته هذه العناية؟". ثُمَّ يقول: "فمن ضعف العقل أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصي الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم".[٢٠]

أمَّا الدليل العقلي على أنَّ هذا الأمر الممكن لدى العقل قد وقع فعلاً فذلك أنّه قد أخبر بوقوعه الصادق والمعصوم محمَّد ﷺ، وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حقّ وثابت، وذلك هو المطلوب. وقد أكّد ذلك الأستاذ مالك بن نبي في حديثه عن مبدأ

---

[١٩] الشاطبي: **الاعتصام** (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، ت) ١/١٤٤.

[٢٠] **رسالة التوحيد**، ص٥٧-٥٨.

النبوة، فالنبوة المرتكزة إلى الوحي لا يمكن ملاحظتها إلا من خلال شيئين: شهادة النبي، ومحتويات رسالته المتواترة المنزلة، فالأمر يتعلق بمشكلة نفسية من ناحية، وتاريخية من ناحية أخرى[٢١]. وفي كل ظاهرة نبوية كانت محاولة التملص من تبعات الدعوة دليلاً آخر على صدق الدعوى، وأن التكليف صادر عن ذات خارجية.

وكذلك فإنه "من المعلوم ـ بناءً على وجهة نظر هيجل التي تعتمد على ملاحظة الظواهر ـ فإننا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تفسر شيئاً ولا تثبته، فإن تكررها في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية"[٢٢]، وهذا يصدق على الوحي، إذ تكرر على مدار التاريخ وبشهادة الأديان السماوية الكبرى.

وقد حاول الأستاذ بن نبي البرهان على فرضية صدق النبوة من خلال سفر من أسفار التوراة، وهو سفر إرميا، فالعهد القديم وإن كانت الدراسات النقدية قد أتت عليه وجعلته أيدي سبأ إلا أن سفر إرميا احتفظ بنوع من المصداقية التاريخية، ولهذا اعتمده بن نبي بناء على شهادة بعض أكابر المتخصصين من أمثال البروفيسور مونتييه – Montent، فمحاولة التملص من تبعات الدعوة عند النبي إرمياء واضحة لا تحتاج إلى بيان، ونبوته دليل بيّن على تكرار ظاهرة النبوة، وبالتالي تكرار الوحي.[٢٣]

وقد تخالف الأستاذ بن نبي في قضية أن تيقن النبي ﷺ في مصدر المعرفة الموحاة يجيء مع الوحي نفسه، وهو ما حاول الأستاذ نفيه من باب التوكيد على أن الوحي لا يؤلف جزءاً من طبيعة النبي ﷺ[٢٤]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكي يجد فصلاً ما بين ظاهرة الوحي وبين المكاشفة التي سعى الكاتب إلى تحليلها تحليلاً نفسياً دقيقاً.

---

٢١ بن نبي، مالك: **الظاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط٤، ١٩٨٧م) ص٨٧.

٢٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢٣ لمزيد من التفاصيل انظر: **الظاهرة القرآنية**، ص٩٣ وما بعدها.

٢٤ نفسه، ص١٤٦ – ١٤٧. وانظر الصفحة ١٥٢؛ حيث ذهب إلى أن اقتناع النبي ﷺ لم يكن مطلقاً في بداية الوحي لا لأنه كان مرهوناً بالظروف الخارجية للنجاح الذي بدا له غير محتمل في تلك اللحظة، ولهذا أصابه الرعب ـ الذي حلّ محله السكينة فيما بعد ـ وفكر بالانتحار بأن يرمي نفسه من قمم الجبال. وهذا الكلام صحيح من جهة أن الرسول الكريم ذهل لظاهرة غريبة عنه كل الغرابة فوقف عاجزاً أمامها، ولا يصح من جهة أنه لم يدرك حقيقة المعرفة الموحاة، فلم يرد ما يشير مطلقاً إلى أنه فسر المعرفة الموحاة بأنها صادرة عن نفسه، بل وقف موقف المترقب الوجل حتى تتابع الوحي فصار يعرفه من مجرد اقترابه، ويدرك تمام الإدراك ماهية هذا الوحي ويستوعبه في اللحظة الزمنية ذاتها للوحي ويعيها ويبلغها فيما بعد.

ومنشأ مخالفتنا له يستند إلى أحاديث كثيرة - قد أورد بن نبي جزءاً منها في كتابه - كلها يشير إلى أن النبي ﷺ يعرف أن شيئاً خارجاً عن ذاته يخاطبه بطرق متعددة متفاوتة في شدتها على شخصه الشريف، خاصة عندما يأتي الوحي على هيئة صلصلة الجرس، فيعرف مباشرة أن الوحي جاء، ويدرك في الوقت ذاته أن ما يوحى إليه ليس صادراً عن ذاته بل عن ذات عليا فيسعى جاهداً ليس إلى إدراكه فحسب بل وتكراره لحفظه خشية الضياع!.

وقد زعم صاحب الميزان أن الرسول ﷺ كان يتلقى الوحي لا بالأدوات الحسية الظاهرة كما هو الحال مع كل بشر، إذ لو كانت حواسه المادية هي المتلقية لكان ذلك شيئاً مشتركاً بينه وبين غيره، ولكان سائر الناس يرون ما يراه، ويسمعون ما يسمعه!

وقال ابن خلدون في مقدمته ما يشبه هذا الكلام الصوفي، إذ ذهب إلى أن خصوصية النفس النبوية متمثلة في انسلاخها عن البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة في الأفق الأعلى[٢٥]. وأكد ذلك في موضع آخر حين تحدث عن القوة التي تهيئ للنبي اللقاء بالملك إذ فسر الإدراك بأنه خارج عن مدارك البشرية بالكلية، فإذا فرغ من ذلك الألقاء تنزل مرة أخرى إلى المدارك البشرية[٢٦]. ولا يستغرب ذلك منه، فقد عرف الرؤيا بأنها "تجرد من المواد الجسمانية والمدارك البدنية"[٢٧]، فكيف إذاً بالوحي!!

وقد سبق للإمام الرازي أن أبطل هذه الدعاوي التي لا تسند إلى دليل من عقل ولا نقل، فقال: "وبعض فلاسفة المسلمين يقولون، وقولهم باطل، أن مخيلة النبي تتصل بالعقل الفعال الذي يفيض على المخيلة، وبالفيض تدرك أمور الغيب يقظة ومناماً، وما تراه مخيلتهم أثناء اليقظة هو الوحي".[٢٨]

وقد أعمل الأستاذ بن نبي فكره الثاقب في قضية الالتفات الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ

---

[٢٥] ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: حجر عاصي (دار مكتبة الهلال، ١٩٨٨م) ص٧٠-٧١.

[٢٦] نفسه، ص٦٧ و ٧٣.

[٢٧] نفسه، ص ٧٣.

[٢٨] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب: **النبوات وما يتعلق بها**، تحقيق: أحمد حجازي السقا (القاهرة، دار الاتحاد العربي للطباعة، د. ط. ت) ص١٨٥.

وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ {يونس: ٢٢}؛ ورأى أن تفسير عملية تغيير الضمير من المخاطب إلى الغائب بأنها مجرد التفات تفسير سطحي، وأدبي محض لا يدل من الوجهة النفسية إلا على حدوث مقصود أساساً صادر عن ذات مختارة هي "الملتفت".[٢٩]

وعدَّ هذا الالتفات من الوجهة النفسية التحليلية بأنه عندما يتدخل تداعي المعاني في عمليات اللاشعور ـ ولا سيما في الرؤى ـ فإنه لا يعدل الوضع النسبي للفاعل بانتقاله من شخص لآخر فحسب، ولكن الفاعل نفسه يتغير بفعله، فهنا على وجه التحديد فاعل ضمني هو الذات المحمدية التي يتغير وضعها بالنسبة للفاعل الحقيقي، ولكن الفعل يستمر كما هو في الآية المذكورة...[٣٠]

لا شك أن هذه محاولة غير معهودة في تحليل قضية الالتفات النحوية الصرفة، ومحاولة جادة لمعالجتها من وجهة نظر نفسية تحليلية، ولكنها جاءت في دائرة نفي تيقن النبي ﷺ في المعرفة الموحاة حال الإيحاء، وهذا ما نخالفه فيه تمام المخالفة، فإن الاتحاد الزمني لعمليتي الوحي والتلقي لا يعني اتحادهما في شخص النبي وبالتالي القول بأنها صادرة عن ذاته، ولا يعني كذلك أنه مُجفل تماماً عن التيقن في المعرفة الموحاة حال الإيحاء، وقد يستعصي حقيقة تفسير ظاهرة الوحي في هذا المستوى، لأنها ليست ظاهرة نفسية معهودة يمكن تناولها بيسر، ولا يعلم حقيتها إلا الله سبحانه وتعالى.

وثمة نقطة أخرى نريد إثباتها هنا، وهي مناقشة الأستاذ مالك بن نبي للمستشرق الكبير درمنغهام، فقد أورد الآية التي ربما تمسك بها ذلك المستشرق وغيره، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ {القصص: ٨٦}، فقد أعرض الأستاذ صفحاً عن النظر في التفاسير لمعرفة حقيقة الاستثناء في هذه الآية، فإن تفسير المستثنى بأنه (رجاء موهوباً رحمةً من الله) وتفسير المستثنى منه بأنه "رجاء إلقاء الوحي إليك" وهمٌ وقع فيه درمنغهام وأمثاله.

فإن النبي ﷺ لم يرجُ مطلقاً ذات يوم أن يكون نبياً كما وقع لبعض معاصريه الأحناف الذين كانوا في حالة ترقب ظهور النبي الجديد فرجوا أن يكونوا إياه!، والآية لا

---

[٢٩] الظاهرة القرآنية، ص ١٦٤ – ١٦٦.

[٣٠] نفسه، ص ١٦٥.

تدل على ذلك وتنفي أن الجزيرة العربية كانت في حالة غليان تترقب ظهور النبي الجديد، وكلٌّ قد أعدَّ نفسه ليتولى مهامه! وأن حضرة المصطفى ﷺ كان واحداً منهم، فحقيقة الاستثناء في هذه الآية هي ما قاله جار الله الزمخشري حيث نبَّه بصورة تدعو للإعجاب على حقيقة هذا الاستثناء فقال:

وجه الاستثناء أنه محمول على المعنى (وما ألقينا عليك الكتابَ إلاَّ رحمةً)، ويجوز أن تكون إلاَّ بمعنى "لكن" للاستدراك، أي: (ولكن لرحمة من ربك أُلقيَ إليك)! ٣١

فبهذا التقدير لا يكون الرجاء مستثنى منه، بل المستثنى منه هو الإلقاء، ويكون التقدير الكامل: (وما ألقينا عليك الكتاب إلا إلقاء رحمة)!، وتنصرف المعاني حينها إلى أن الدعوة الجديدة وإن جلبت مشقات وهموماً لا تحصى لحضرة المصطفى ﷺ إلا أن جانب الرحمة فيها سيظهر جلياً، فلا تستسلم للكافرين - أيها النبي - خشية من بأسهم، وتظنن في الدين الجديد إلاَّ دعوة إلى اليسر والرحمة.

وانتصر الشيخ سعيد حوى لمعنى الاستدراك في الآية، فقال: ﴿إلاَّ رَحْمَةً منْ رَبِّكَ﴾ أي: ولكن رحمة من ربك أنزل إليك، أي إنما أنزل الوحي عليك من الله رحمة بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة فلا تكن معيناً للكافرين، أي وفارقهم ونابذهم وخالفهم. ٣٢

ويرى العلاَّمة ابن عاشور أن الاستثناء في ﴿إلاَّ رَحْمَةً منْ رَبِّكَ﴾ استثناء منقطع، لأن النبي ﷺ لم يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله تعالى واصطفاء له. ٣٣

أمَّا الدليل على الصدق والعصمة فهي تلك المعجزة الصادقة التي أظهرها الله على يده وهي شهادة من الله على صدق رسوله، وناطقة: صدق عبدي في كل ما يبلغه عني، ذلك عن طريق الوحي إليه.

---

٣١ الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٩٧م) ٣/٤٤٠-٤٤١.

٣٢ حوى، سعيد: **الأساس في التفسير** (القاهرة: دار السلام، ط٥، ١٩٩٩م) ٤١١٩/٧.

٣٣ ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤م) ١٩٤/٢٠.

فالعقل البشري مهما ارتقى في سلم المعرفة الإنسانية واكتشاف المجهولات فهو عاجز عن إدراك كنه هذا الكون لوحده، كما أنّه عاجز عن معرفة ما تنبغي معرفته مما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته، وغير ذلك مما يتعلق بعالم الغيب من المسائل الميتافيزيقية، ومن الشرائع والأحكام التي تتناول تنظيم شؤون حياة الإنسان الخاصة والعامة، فرداً ومجتمعاً، في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، ومن ثَمَّ فالعقل الإنساني بحاجة ماسَّة إلى هادٍ له في معرفة هذه الأمور، وهذا الهادي هو الوحي الإلهي ليس إلاّ، فهو الموئل وهو المرشد إلى ما يكفل تنظيم حياة الإنسان وتلبية حاجاته المختلفة الجسمية، والروحية، والعقلية سواء أكانت متعلقة بحياة الدنيا أو بحياة الآخرة حتى ينعم بالسعادة المنشودة. فالوحي هو الأساس الأول الذي يقوم على حقيقته معنى النبوة والرسالة، ومن ثَمَّ فهو المنبع الأول لكافة الأخبار الغيبية وشؤون العقيدة وأحكام التشريع، فهو الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويُشرِّع بواسطة رأيه وعقله والإنسان الذي يبلِّغ عن ربه دون أن يغيِّر أو ينقص أو يزيد من تلقاء نفسه.[٣٤]

نخلص إلى ول: إنَّ العقل لا يمنع وقوع الوحي، بل يجوز وجوده ووقوعه، فالوحي لا يتعدى كونه ممكناً عقلاً، والأدلة العقلية قائمة على وقوعه فعلاً، وهذا خلاف قول من قال إن الوحي ليس أوسع من العلم العقلي، وأن حدود العقل هي حدود العلم[٣٥]، والاحتجاج لمثل هذه المقولة بأن الوحي لو كان ذا مضمون لا يمكن الوصول إليه بالعقل لتعذر استعماله احتجاج فاسد!

وفساد هذا الاحتجاج لا يخفى، لأن الاطلاع على الغيب شيء، وفهم هذا الغيب بعد الوقوف عليه شيء آخر، فعالم الجن، والملائكة، والجنة، والنار، وأحوال يوم القيامة، وأخبار الأنبياء السابقين كلها كانت مغيبات لا يمكن الوصول إلى كُنهها بالعقل، ولما تفضل الله على المسلمين بشيء من هذه الأخبار لم يعرضها بصورة لا تُعقل، بل قربها إلى المحسوسات والمشاهدات ليدرك العقل منها ما أدرك، فكيف يمكن للباحث بعد ذلك أن

---

٣٤ محمَّد سعيد رمضان البوطي: **كبرى اليقينيات الكونية** (دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٣٩٤هـ) ص١٩٩.

٣٥ المرزوقي، أبو يعرب: **وحدة الفكرين الديني والفلسفي** (دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠١م) ص ٢٢-٢٣.

يدعي أن الوحي لا يختلف عن العقل، وأن مقولة "العقل الإنساني يحتاج إلى الوحي لكونه محدوداً" سخف ومجرد ذريعة لتبرير سلطان الفقهاء الروحي[٣٦]...

إن تلك المقولة في حق الفقهاء تنطوي على نوع تمنطق متهافت، يستلب من المنطق صورته ليصل إلى مقولات لا منطقية، وإن بدا الغرض مشروعاً وهو إثبات عدم التعارض بين العقل والوحي، إذ انعدام هذا التعارض لا يعني تطابقهما بحال، فالوحي إيصال علم - لا قبل للإنسان بالوصول إليه بحسه وعقله ــ في صورة أقرب إلى المحسوس والمشاهد، والعقل إدراك مضمون هذا الموحى به. وخير من تلك المقولة ما قاله صاحب الموافقات: "ما جاء في الوحي لا يخالف قضايا العقل أي مبادئه، بل هو جار على مقتضاها، وما يظن أن مناقض للعقل ليس إلا متعالياً عن فهمه دون أن يكون مناقضاً له.[٣٧]

ظاهرة الوحي والعلم

كما أنَّ العقل لم يمنع وقوع الوحي وأدخله في دائرة الإمكان، وثبت لديه وقوعه فعلاً بالأدلة، كذلك العلم لا يمنع وقوعه وحدوثه، أمَّا معرفة كيفية هذا الوقوع والحدوث فليست هذه المعرفة من اختصاص العلم الحديث، لأنَّ اختصاصه إنما يتناول هذا العالم المحسوس. أمَّا ظاهرة الوحي فهي تخص عالم الغيب الذي تتوقف معرفة شؤونه على الأخبار والروايات الصحيحة التي مبعثها الوحي، فالبحث عن الوحي وكيفية حصوله، إنما يكون فقط من خلال الروايات والأخبار الصحيحة، فالوحي خارج عن دائرة اختصاص العلم الذي يتناول المحسوسات والمشاهدات عن طريق الحواس المعروفة من هذا العالم، ثُمَّ إنَّ ما استطاع العلم كشفه من هذا العالم المحسوس المشاهد نفسه إنما هو أقل من القليل بالنسبة لما بقي مجهولاً لديه حتى اليوم، فالعلماء الطبيعيون في مختلف تخصصاتهم العلمية يقرون بهذه الحقيقة، يقول الأستاذ وليم جيمس: "إنَّ علمنا ليس إلاَّ نقطة، ولكن جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو: إنَّ عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر، لم ندرك خواصه المكونة له"[٣٨].

---

٣٦ المصدر السابق، هامش ١، ص٢٢.

٣٧ الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي: **الموافقات**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، مطبعة صبيح، ١٩٦٩م) ٣/١٥.

٣٨ رشدي عليان وقحطان الدوري: **أصول الدين** (بغداد: مطبعة الإرشاد، ط٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص٢١٦.

ويقول انشتاين عن العلم والوحي: "العلم يخبرنا بما هو كـائن، ولكـن الوحـي وحـده هـو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون".[٣٩]

إذا فمن المسلَّم علمياً أنَّ الموجودات أكبر وأدقُّ وأبعد مدى من ظواهرها التي يزعـم العلم التجريبي أنّه يستطيع هضمها، كما أنَّ عدم الشهود لا يستلزم عدم الوجود، حيـث قطع العلم شوطاً بعيداً في الدلالة على وجود مغيبـات كثيرة غير محسة مـن موجـودات ونواميس كونية عرفنا بعضهـا ولم نعـرف معظمهـا، وكثيراً مـا وجـد علمـاء الكونيـات أنفسهم أمام مشكلات موصدة مستعصية على الكشف فتتركهم حيـارى لا يـدرون مـن أمرها شيئاً ذا بال.

إنَّ عدم الشهود لا يستلزم عدم الوجود، وهل يكون الإنسان القديـم مصيبـاً لـو أنكـر وجودهـا لأنّه لم يبصرهـا بـأمّ عينيـه؟! والإنسـان قبـل تطـور العلـم واكتشافاته المتنوعة قد عرف وجود ما لا يرى إلاّ بآثاره كالهواء والعقل والروح، فهل يسوغ للإنسان المعاصر أن يجحـد وجـود مـا لم يـره؟! أو يجحـد كـل مـا لم يتعرف عليه بآثاره؟! وهل وصل العلم ذروته وأحاط بكل موجود علماً؟!

فالإنسان الذي عرف تلك الحقائق في الكون وانتفع بها ينبغي أن يكون أكثر تفهماً وتقبلاً لظاهرة الوحي وأقوى إيماناً برسالات الرسل وبالملائكـة الذيـن هـم الواسطة لتبليغ تلك الرسالات، وهم مخلوقات نورانية، فالعلم يوقن بوجود مـا لا يُرى من أنواع الأشعة وجدها في الطبيعة ثُمَّ صار يصنعها ويستخدمها في أغراضه المتنوعة، فإذا بلغ الإنسان ذلك، فإن الله خالق الإنسان الذي منحه العقل والعلـم والقوة، وفاطر السماوات والأرض وما بينهما، والمتصرف في خلقه وفي الكون بما يشاء، وله القوة المسيطرة والعلم المحيط والإرداة المطلقة لقادر بكل يقـين علـى أن يوصل العلم والحق والأحكام والشرائع بوسيلة لا تُرى بالعين - وهـي الملائكـة - إلى بعض من اصطفاهم من خلقـه وهـم الرسـل مـن البشـر، ومـن رأى في ذلـك استحالة أو عسراً على الخالق فقد أهدر عقله وأضاع رشده وفقد صوابه.[٤٠]

---

٣٩ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٤٠ **نبوة محمَّد في القرآن**، حسن ضياء عتر، ص٧٤ وما بعدها.

وليس هناك ما يمنع هذا الاتصال بين الملك والنبي بكيفية ما بدليل ما يقدمه لنا العلم الحديث من أجهزة علمية يتمكن بها من إدراك ما كان مجهولاً لديه من قبل، فالعلم باكتشافاته المتعددة المتنوعة ومخترعاته الصناعية يقرِّب إمكانية حصول الوحي إلى الأذهان بشكل لم يسبق له مثيل في العصور السابقة، ومن الأدلة العلمية التي تجعل حدوث الوحي أمراً ممكناً عقلاً وعلماً مجموعة أخرى من الأدلة ذكرها الزرقاني منها:[٤١]

١. استطاع العلم أن يملأ اسطوانات من الجماد الجامد الجاهل بأصوات وأنغام، وبقرآن وأغان... وعلى وجه يجعلها حاكية لها بدقة واتقان، وبين أيدينا من ذلك شيء كثير لا سبيلٍ لإنكاره يسمونه "الفونغراف"، أبْعَدَ هذه المخترعات القائمة المتداولة ومن ضمنها الكمبيوتر يستبعد على ا لله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء أن يملأ بواسطة ملك أو بغير واسطة بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس يهدي به خلقه على وجه يجعل ذلك منقشاً في قلب رسوله حتى يحكيه ويبلغه بدقة وإتقان.

٢. إننا نشاهد بعض الحيوانات تأتي بعجائب الأنظمة والأعمال مما نخيل معه أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها، أو غريزة ساذجة فيها، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر منها إلاّ عن إرادة عليا توحي إليها وتلهمها، وإذا صحّ هذا في عالم الحيوان، فهو أولى أن يصحّ في عالم الإنسان، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى، وأخذه عنه يكون أتمّ، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي.

٣. دليل العبقرية: يعرف أفلاطون العبقرية بأنها حالة إلهية مولدة للإلهامات العلوية للبشر، ويقرر الفلاسفة أنها حالة علوية لا شأن للعقل فيها، ويقول الطبيعيون: إنّها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ولا يوجدها تفكير. فالعبقرية التي تثبت اتصالات روحانيةباطنة في بعض الأفراد مما يقرب إلى المدارك إمكانية الوحي وأنه غير مستحيل.

٤. قرر العلم الحديث أنّه شُوهد على بعض الناس أنّهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء، على حين أنَّ هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوافي حالة ذهول، وقد استحال تعليل ما أتوا به تعليلاً مادياً يستند إلى الحس، وقد اختبروا تلك الظواهر، واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذي الأرض فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء، وإنما هي أحداث روحانية لا أثر فيها للمهارة وخفة

---

٤١ مناهل العرفان، ٦٢/١ وما بعدها.

اليد. تلك حقيقة من حقائق العلم الحاضر، فكيف يستبعد بالرغم من هذا الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي بينما هم من كملة العقول والأخلاق.

أمَّا المنهج الذي سلكه الغربيون في البحث عن ظاهرة الوحي فهو أخذ كلمة (الوحي) بوصفها أثراً أو حادثة مبهمة خلّفها التاريخ، ثُمَّ إعمال الحدس والتخمين في الاستنتاج فاختلفوا حول أمر الوحي على مذاهب متفرقة بسبب إسقاطهم في الاعتبار والحسبان أمر الرواية والخبر وقيمتهما العلمية.

لعل السبب الذي حدا بالغربيين في العصر الحديث إلى اتخاذ هذا المنهج في هذه الدراسة هو أنَّ اتجاه القرن التاسع عشر كله كان صادراً عن الوضعية المطلقة. حيث بلغ شمول هذه الروح الوضعية المادية جميع البحوث من غير استثناء إلى حدّ أن أخذ المستشرقون يعلنون في مباهاة أنهم اعتادوا أن يجعلوا النصوص الموحاة خاضعة للاختبار النقدي، وأنهم يدرسونها على المنهج الذي يدرسون به أي إنتاج بشري، وأنهم يعكفون على أصول الديانات الكبرى كاليهودية، والمسيحية، والإسلام ليدرسوها من وجهة النظر الإنسانية لا أكثر ولا أقلّ، ويظن أولئك الوضعيون أنهم بواسطة منهجهم التجريبي قادرون على تفسير النصوص الدينية.

إنَّ تفسير علماء المسلمين لظاهرة الوحي إنما هو تفسير يؤيده العقل والمنطق والواقع، وهو تفسير قائم على أساس ضرورة الرجوع فيه إلى النصوص في المصادر التاريخية الصحيحة، فانتهى بهم ذلك إلى القول: إنَّ العلم بكيفية الوحي سرّ من الأسرار التي لا يدرك كيفيتها العقل [٤٢]، لأنّها فوق مستوى الإدراك الإنساني، فسلموا بذلك من الغلو والانحراف اللذين وقع فيهما العلماء المسيحيون المتدينون منهم، والماديون في تفسيرهم لظاهرة الوحي، حيث ذهب المتدينون منهم في تفسير الوحي إلى أنّه حلول روح الله في روح الملهم، ومن حلّ فيه روح الله صار إلهاً، فالمسيح لم يكن عندهم إلهاً إلاّ بهذا الحلول، فهو في معتقد الطائفة النسطورية من النصارى، إذ مذهبهم القول بالمزج والسريان، أما جمهور النصارى فعلى القول بطبيعتين مستقلتين: إلهية وإنسانية، لكل منهما

---

٤٢ انظر: إرشاد الساري إلى صحيح البخاري، العسقلاني، ٥٩/١.

خصائصها التي تنفرد بها. أمَّا الماديون منهم فيفسرون الوحي بالصورة التي يقبلها عقل لا يؤمن صاحبه بما وراء الطبيعة.[٤٣]

ومما لا شك فيه أنَّ التفسيرين مرفوضان، أمَّا التفسير الأول فمرفوض لأنَّه يستحيل أنَّ يحلّ سبحانه وتعالى في غيره، أو يحلّ غيرهُ فيه، لأنَّ ذلك منافٍ لمقام الألوهية، ومستلزم حدوث الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما التفسير الثاني فمرفوض هو الآخر أيضاً، لأنّه يستلزم أنَّ العقل هو الفيصل الوحيد في كلّ القضايا، والمدرك لكل الأسرار، والهادي وحده إلى سبيل الرشاد، وليس الأمر كذلك لأنَّ دائرة معارفه محدودة، يقول الإمام الغزالي في ذلك: إنَّ العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات.[٤٤]

المنهج السليم الذي ينبغي اتباعه في كل الدراسات والبحوث حتى تأتي النتائج علمية يتطلب الأخذ بكل مصادر المعرفة الإنسانية كلّ في ميدانه ضمن منهج تكاملي ودون الترويج لمصدر على حساب مصدر آخر، حيث يؤدي ذلك إلى عدم التوصل إلى النتائج العلمية كما ينبغي، فمصادر المعرفة كما هو معروف لدى علماء المسلمين تنحصر في أقسام ثلاثة: الوحي والعقل والحس أو الواقع. ولكل واحدة من هذه المصادر موضوعاته الخاصة به، وأن الخروج من مصدر موضوع البحث إلى مصدر آخر للبحث عنه يُعدُّ في حدِّ ذاته خرقاً وخروجاً على الموضوعية العلمية، ومسلكاً يؤدي إلى صراع فكري لا يتوقف عند حدّ مقبول لدى كل الأطراف من أنصار كل مصدر.

هكذا بدا لنا أنَّ أنصار كل مصدر يعطون لمصدرهم دوراً أكبر من دوره في الواقع، ولذا نجدهم يختلفون في القضايا المثارة للبحث اختلافاً كبيراً سواء أكانت طبيعية أو ميتافيزيقية، ومنها ظاهرة الوحي التي يحاول الوضعيون الماديون إخضاعها لتلك العلوم التجريبية.

عن ذلك يقول الدكتور التهامي نقرة: "وفي نظري أنَّ البحث في ماهية الوحي الإلهي كالبحث في ماهية النفس لا ينتهي إلى نتيجة حاسمة يثق بها الذين لا يؤمنون بالنبوة ولا

---

[٤٣] التهامي النقرة: **سيكولوجية القصة في القرآن** (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، د. ط، ت) ص٥٦.

[٤٤] أبو حامد الغزالي: **المنقذ من الضلال**، تحقيق: إبراهيم حبيب (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، ت) ص٣٣.

بخصائصها، ولا يحكمون في مثل هذه القضية سوى العلوم التجريبية التي يعالجون بها المسائل الروحية خارج بيئتها، كما يعالجون سائر القضايا".[٤٥]

فمما لا شك فيه أنَّ تفسير ظاهرة الوحي في ضوء هذه العلوم التجريبية أو التحليل النفسي خروج عن المنهجية العلمية وجهل بحقيقة النبوة، حيث إنَّ ظاهرة الوحي ليست من موضوعات تلك العلوم وإنما هي من موضوعات الدين وحده.

مفهوم ظاهرة الوحي عند غير المسلمين

الوحي عند فلاسفة اليونان

لم يذكر مؤرخو فلسفة اليونان أنَّ رسالة سماوية خرجت في بلاد اليونان في فترة نهضتها الفلسفية التي بدأت قبل ميلاد المسيح بحوالي ستة قرون تقريباً، ولكن هذه البلاد كانت تحتضن ديانة وثنية ومعتقدات بدائية كثيرة، ولم يكن البحث والتحري من مصادرها يحظى باهتمام فلاسفتها، وإن كانت سخريتهم بها أحياناً وتعديلهم بعضاً منها أحياناً أخرى مما يستشف أنهم كانوا يتعتبرونها إنتاجاً بشرياً صاغه الفلاسفة والشعراء والكهنة منذ قديم الزمان. بل هذا صريح موقفهم منها، فقد فهم هؤلاء الفلاسفة أنَّ الدين في حقيقة أمره إنما هو مجموعة أساطير وخرافات ابتدعها العقل يفسر بها الكون وما فيه. هذا الموقف الذي وقفه سقراط من الدين وأُعدم بتهمة تبنيه.

أمَّا أفلاطون فقد حدَّد أصول الدين حينما قسمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: دين أسطوري (ميثولوجي) ابتدعه الشعراء والفنانون بغية تسلية الناس به.

القسم الثاني: دين ابتكره أصحاب السلطات لضمان انقياد وخضوع الناس لهم انقياداً من داخل أنفسهم نتيجة الخوف من الآلهة.

القسم الثالث: دين الفلاسفة، وهو الذي يصور الحقيقة كما تقررها عقولهم.

ولذلك فإن تفسير أولئك الفلاسفة للأديان اليونانية ومعتقداتها لا يربطها بأي أصل سماوي أو نبوَّة، فكأنهم يجهلون جنس النبوَّة والوحي، ولا يعرفون من ذلك شيئاً، وهو ما جزم به ابن تيمية؛ وهذا حكم صدقه كبار مؤرخة الفكر الفلسفي، فلغربة بلاد اليونان عن النبوة صاروا يلتمسون الطريق إلى الحق إما بالعقل، أو بشهادة الواقع، فانشطروا إلى مثاليين وطبائعيين، إيليائيين وأيونيين.

---

٤٥ سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٩٠.

وقد جاء العقليون من فلاسفة اليونان ليؤكدوا قيمة العقل في المعرفة، وأنه وحده يدرك الحقائق المطلقة، وكان على رأس هؤلاء سقراط ٣٩٩ ق. م، وجاء أفلاطون سنة ٣٤٧ق. م تلميذ سقراط ففصل القول في المعرفة البشرية وجعلها مراتب أعلاها مرتبة التعقل الذي موضوعه التصورات الفلسفية المجردة أو المثل العقلية كالعدالة، والجمال، والخير، ويرى أفلاطون أَنَّ معرفة ا لله واجبة وأنها لا تكون إلاَّ بالتعقل...

يبدو أنَّ فلاسفة اليونان لم يعرفوا وحياً منزَّلاً، ومن ثَمَّ لم يبحثوا فيه قبولاً أو ردّاً ومجالاً أو قيمة ونحو ذلك.

الوحي عند فلاسفة المسيحية

قد ثارت قضية العلاقة بين الفلسفة والدين، وبين العقل والنقل لدى فلاسفة العصر الوسيط، وانقسموا إزاءها إلى قسمين:

القسم الأول: ذهب إلى القول بأن الفلسفة والدين أمران متناقضان ومتغايران، وعليه فيمكن قبول قضية ما بالعقل وقبول نقيضها بالإيمان.

القسم الثاني: ويشكل هذا القسم غالبية فلاسفة العصر الوسيط، حيث ذهبوا إلى القول بأنه من الممكن إقامة علاقة بين العقل والنقل على أساس أَنَّ الوحي والعقل هبتان من ا لله تعالى، فمحال أن يتعارضا، بل إنَّ العقل يجد في الوحي هادياً ومعيناً، إلاَّ أَنَّهم مع ذلك يختلفون حول تصور وإدراك هذه العلاقة، فرأت طائفة منهم أَنَّ ما جاءت به الأناجيل من تصور للوجود فوق قدرة العقل أن يصل إليه وحده، وأن يكشف عنه بنفسه، ومن ثَمَّ فتبقى مهمته تلقي هذا التصور بالقبول والعمل وفقه، وكان هذا الرأي لأغلبية فلاسفة المسيحية منذ القرن الثاني إلى القرن الثالث عشر.

أَمَّا الطائفة الأخرى منهم في القرن الثالث عشر فقد تأثرت بفلسفة أرسطو وكلامه عن العلم وشروطه، ولذا فإن هؤلاء فرقوا بين العلم والإيمان، حيث إنَّ العلم في مجال الفلسفة قائم على العقل الصرف، بينما الإيمان في مجال اللاهوت قائم على ما جاء به الوحي.

الوحي عند فلاسفة الغرب المعاصرين

أَمَّا موقف فلاسفة الغرب المعاصرين من الوحي فيتلخص في ثلاثة مواقف وهي:

١. موقف من يرى أَنَّ ما جاء به الدين وحي إلهي، ولذا فإنه يحمل صفة الصدق والكمال، وأن من الخطأ الانصراف عنه وطلب الحقيقة من مصدر سواه فيما جاء به.

٢. موقف من حاول الجمع بين العقل وبين الإيمان بالوحي بوصفه مصدراً للمعرفة دون الالتزام بما جاء في كتب الكنيسة المقدسة من نصوص لا يليق بعضها بالوحي، وقد أقرّ هذا الفريق من الفلاسفة بأن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام بدين وعقيدة، لكن الكتب المقدسة تحمل في طياتها زيادات من وضع البشر على ما أوحي إلى المسيح، فلا بُدَّ من استخلاص الموحى فقط، وذلك بالاحتكام إلى العقل، ومن هنا جاءت فكرة الدين الطبيعي أو دين العقل - Deism الذي يرى أتباعه أن العقل مندوحة عن الوحي، فهم منكرون للوحي بإطلاق.

٣. موقف من يرى أنَّ مصدر الأديان والمعتقدات هو الإنسان، فهي بشرية من صنع الإنسان وابتداعه دون أن تأتيهم من خارج نفسه، قال بعضهم: إنَّ مصدرها العقل المجرد، ومن ثَمَّ قرروا قضايا كلية كوجود الخالق، وخلود النفس ونحو ذلك، على أنّها هي ما يقرره العقل ونفوا ما سواه.

وقال آخرون: إنَّ مصدرها العاطفة والوجدان، كالفيلسوف هيجل الذي يقرر أنَّ الدين فنّ باطني يصور لنا الحقيقة الإلهية من الداخل عن طريق الشعور الباطني، وانتهى هذا الموقف بالمدرسة الوضعية إلى نظرية جعلت الواقع مصدر المعرفة الوحيد.

فالوضعية ترى أنَّ الطبيعة التي تنقش الحقيقة وترسمها في عقل الإنسان هي المصدر الوحيد للمعرفة الحقة، فالمعرفة دائرة بين الإنسان والطبيعة ولا شيء وراءهما إلاّ الوهم والخيال، فالدين والوحي ونحوهما خداع للحقيقة وليسا منها في شيء.

ويرى أوجست كونت أحد مؤسسي الوضعية أنَّ العلم الطبيعي المادي ينبغي أن يحل محل اللاهوت، وأن يضايقه كما ضايقه اللاهوت من قبل.

المستشرقون وظاهرة الوحي في حياة الرسول ﷺ

لما كان الوحي الأساس والجوهر لمعنى النبوة، والمنبع للأخبار الغيبية كافة في قضايا العقيدة وأحكام التشريع، اهتمّ أعداء الإسلام من المستشرقين المغرضين والمبشرين المسيحيين بمعالجة ظاهرة الوحي في حياة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ولا يزالون يبذلون من الجهد أقصاه من أجل التلبيس والمزج والتخليط بين الوحي الإلهي النازل على الرسول ﷺ، وبين الإلهام وحديث النفس، بل وحتى الصرع أيضاً، وأخذوا يعملون الحدس والتخمين في ذلك رافضين كل الأخبار والنصوص الصحيحة الناطقة بهذا الخصوص.

فالمستشرقون المغرضون الذين يرفضون نبوة محمَّد عليه الصلاة والسلام لا يفهمون حقيقة الوحي والنبوة، لذا جاءت أحكامهم في مسألة الوحي خاطئة لا تستند إلى أي دليل، فكانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع، لأنّهم لا يعرفون حقّ المعرفة العلاقة الصحيحة الرابطة بين الوحي والنبوة، مما جعلهم يثيرون الشبهات الكثيرة المتنوعة حول الوحي القرآني، وكانت هذه الشبهات كلها أو جلها تستهدف في الغالب التأكيد على أنَّ القرآن ليس وحياً مرتبطاً بمصدره الإلهي وإنما هو نابع من ذاته عليه السلام، ونتيجة تفكيره فلا علاقة له بمصدره الإلهي.

إنَّ مسألة الوحي والتعرف على حقيقتها فوق مستوى العقل، فهي خارجة عن نطاق إدراكه، نعم إنَّ العقل ـ كما يقول علماء الأصول من المسلمين ـ أساس النقل يعنون بذلك أنَّ الوحي إنما يثبت بطريق العقل، فالعقل هو الذي دلَّ على إمكان الوحي... وأقام البرهان على صدق نبوَّة محمَّد ﷺ وصدق رسالته، فلو فقدنا الثقة بالعقل لانهار النقل أيضاً إذ لم يثبت إلاّ به. ولهذا يقول علماء الكلام من المسلمين حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافاً للسوفسطائية، ولكن العقل بعد أن يقيم الأدلة القاطعة على نبوة محمَّد وأنه رسول الله حقاً، وأن الكتاب الموحي إليه إنما هو من عند الله تعالى ليس فيه إلاّ التلقي ثُمَّ التبليغ إلى الناس بعد ذلك يعزل العقل نفسه كما يقول الإمام الغزالي في المستصفى: "ليتلقى بعد ذلك عن الوحي ما يخبر الله من حقائق الوجود وعوالم الغيب، وما يأمر به وينهى عنه من احكام العبادات والمعاملات وشؤون الحلال والحرام في مجال الحياة كلها... [٤٦]

لذا فوصف ظاهرة الوحي الإلهي وما يطرأ على النبي من حالة خاصة ناجمة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية، واتصاله بالملكية الروحانية بالهوس أو الصرع ـ وهو ما قيل في النبوة عامة وفي نبوته ﷺ خاصة ـ أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية على ضوء التحليل النفسي جهل صريح بحقيقة النبوة القائمة على الوحي.

يقول الدكتور التهامي في هذا الصدد: "قد حال دون إقرار المستشرقين وغيرهم بقداسة القرآن وأنه وحي الله تعالى عدم تصورهم الصحيح لقضية جوهرية يتوقف عليها إدراك حقيقة الوحي والنبوة، فإنَّ مَن لا يدرك طبيعة الوحي ولا خصائص النبوة استهدفت

---

٤٦ أبو حامد الغزالي: **المستصفى من علم أصول الفقه** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩١م) ٦/١.

دراسته للقرآن إلى الخروج عن المنهج القويم لهذا اللون من المعرفة، ومن هنا كان خطأ بعض الباحثين عند تحليلهم لنفسيات الأنبياء، وفي تفسيرهم لظاهرة الوحي خطأ جوهرياً صرفهم عن الوجهة السديدة في معالجة هذا الموضوع".٤٧

فالمنهج القويم في تفسير ظاهرة الوحي ينحصر في العودة إلى النصوص الصحيحة في المصادر التاريخية فقط. عن هذا الأمر يتحدث الدكتور محمَّد سعيد رمضان البوطي قائلاً: "إنَّ كل مفكر يعلم أنَّ على الباحث أن يسلك سبيلين: إما أن يضرب صفحاً عن حديث التاريخ كله، وعن هذه النصوص الواردة جميعها، وعندئذ فليس له أن يتحدث عن شيء اسمه الوحي في حياة الرسول ﷺ أصلاً، لأنَّ المفروض أنّها كلمة غير موجودة في حياته، وأما أن يعتمدها ولا يسعه إنكارها وعندئذ فإن عليه أن يلقي السمع إلى كل ما تثبته وتنطق به هذه النصوص من الحقائق والوقائع ٤٨. ثُمَّ يتحدث عن تفسيرات المستشرقين لظاهرة الوحي الخيالية وتهربهم من الإقرار بنبوة محمَّد عليه الصلاة والسلام، فيقول: "عند الموازنة والمقارنة بين تفسيرات النصوص الواردة لظاهرة الوحي في حياة الرسول ﷺ وفي مقدمتها حديث بدء الوحي الوارد في البخاري، وبين ما يفسره المستشرقون وأعداء الإسلام ظاهرة الوحي من أمور خيالية عجيبة لا يرى العاقل مسوغاً للقول بها إلاَّ التهرب من الإقرار بنبوة محمَّد ﷺ.٤٩

من شبهات المستشرقين حول الوحي

الوحي مسألة نفسية

لقد ذهب بعض المستشرقين من أمثال جولدتسيهر إلى أنَّ الوحي مسألة نفسية ترجع إلى تشبع المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها، ويحاول جولدتسيهر أن ينسب المعرفة الدينية التي تلقاها الرسول ﷺ إلى عنصرين: أحدهما خارجي يعود إلى ما استقاه من معرفة دينية بسبب اتصاله باليهود والنصارى وأخذه عنهم، وثانيهما يعود إلى تأملاته في خلوته والتي أثارتها نفسه، وإلى الأحلام والرؤى التي فرضت نفسها على مخيلته حيث يقول: "فتبشير النبي العربي ليس إلاَّ مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها

---

٤٧ سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥١.

٤٨ كبرى اليقينيات الكونية، ص٢٠٢.

٤٩ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية، والمسيحية، وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة حقيقية عند بني وطنه... لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوته التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً".[٥٠]

أمّا المستشرق السويدي تور أندريه فيقول: "هكذا وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحدّ الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أفكار وقرارات على أنها وحي الله، ويتحدث عن الله ورسوله حديثاً يكاد يجعلهما في مكانة واحدة".[٥١]

أمّا بروكلمان فيذهب إلى أنّ نفس الرسول ﷺ دعته إلى أداء الرسالة حيث يقول: "ولقد تحقق عنده أنّ عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان ينضج في أعماق نفسه هذا السؤال: إلى متى يمدهم الله في ضلالهم ما دام هو عزّ وجلّ قد تجلى آخر الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة". ويقول عن الوحي: "ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ما ظنّ أنه قد سمعه كوحي من عند الله".[٥٢]

وقد صوّر بعضهم بهذه الصورة وهي أنّ معلومات محمّد وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية على مخيلته السامية، وانعكس على بصره فرأى الملك ماثلاً على سمعه وبصره فوعى ما حدَّثه الملك به.[٥٣]

على مذهب هذا البعض أنّ مصدر الرسول في ذلك هو الوحي النفسي، وهو الإلهام الفائض عن استعداد النفس العالية.

---

[٥٠] أجناس جولدتسيهر: **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمه ثلاثة أساتذة (مصر: دار الكتب الحديثة، ط٢) ص١٢.

[٥١] جوستاف بفانموللر: **سيرة الرسول في تصورات الغربيين**، ترجمة حمدي زقزوق (البحرين: مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

[٥٢] كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٧٧م).

[٥٣] انظر: **الوحي المحمدي**، سيِّد محمَّد رشيد رضا، ص٤٥.

أمَّا المستشرق هنري ماسيه فيذهب إلى القول بأن محمَّداً قد أضعفه الصوم ممـا جعله يرى رؤى في الليل على الخصوص، حيث يقول: "ويؤكد التقليد أَنَّ محمَّداً في بدء رسالته وقبلها أيضاً كان يكثر من الصوم، ويقضي الليل بالصلاة في أغلب الأحيان، فإذا كان هذا العمل صحيحاً... فإن الصوم قد أضعف جسمه، يمكن أن يحدث رؤى في الليل، وهناك ليلة من الليالي الأكثر شهرة هي ليلة إسراء محمَّد".[٥٤]

هكذا ينظر المستشرقون إلى نبوة محمَّد ﷺ وكونه قد تلقى الوحي نظرة عادية تقطع أي ارتباط أو علاقة بينها وبين مصدرها الإلهي. والسبب في ذلك واضحٌ هو تلك العقدة النفسية المتأصلة في أكثرهم[٥٥]، والمتمثلة في إنكار نبوة محمَّد ﷺ، هذا الإنكار الذي يستلزم القول ببشرية القرآن، فراحوا يتخبطون في تفسير ظاهرة الوحي. من المؤكد أَنَّ التعصب الديني المتوارث القائم على عداء سياسي هو الذي حملهم على إنكار نبوته، وإلاَّ فكيف يقرون بالنبوة لغيره من أنبياء بني إسرائيل ثُمَّ ينكرونها له؟!

أمَّا الزعم بأن الوحي ينبع من داخل النفس فظن مردود ليس له سند إلاَّ مجرد حدس وتخمين، وإنما منبعه خارج النفس، ولا يعدو كونه أمراً طارئاً زائداً على الطباع البشرية فهو استقبال من النبي لحقيقة ذاتية خارجة عن كيانه وتفكيره، ولا يقع تحت كسبه واختياره وإرادته، وبذلك فالوحي يتعارض تماماً مع إلهام الشعراء والفلاسفة، فهو ليس أفكاراً تنبع داخل النفس، وإنما هو سماع صوتي صاف، أي أَنَّ الأفكار لا تسبق الحديث فضلاً عن كونها تلازمه.

فالوحي المتمثل في القرآن ليس من كلام محمَّد ﷺ ولا من مدارك عقله الظاهر والباطن، ولا من كسبه واختياره، ولا من نتيجة تفكيره وتأملاته. يؤكد هذه الحقيقة السيد محمَّد رشيد رضا بقوله: القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمَّد ﷺ ولا من مدارك عقله الظاهر، ولا ما يسمونه العقل الباطن، فإذا فرضوا أَنَّ للإنسان عقلاً باطناً لا تُعرف حقيقته، يدرك به من علم الغيب والشهادة ما هو خفي وخارق للعادة في السنن المعروفة لكسب العلم من الحواس والفكر، وعللوا ما يسمونه قراءة الفكر ومراسلة الأفكار، وإدراك المنوم بالاستهوائي المغناطيسي... فأي بعد بين هذا العقل الخفي المفروض

---

٥٤ هنري ماسيه: **الإسلام**، ترجمة بهيج شعبان (بيروت: منشورات عويدات، د. ط، ت) ص١٠١.

٥٥ الأمر في حقيقته منوط بالمنهج المعرفي ـ الأحادي ـ الإنساني.

في باطن الإنسان وبين وجود عقل خفي مثله في خارجه؟ وهو ما نسميه الملك كما نسمي الأول روحاً، يكون الوحي الحقيقي باتصال أحدهما بالآخر كاتصال الكهربائية الإيجابية بالسلبية، وتولد النور من اتصالهما، فإن ما زعموه من انقداح وحي القرآن من عقل محمَّد الباطن وحده محال.٥٦

أمَّا ما زعمه المستشرق السويدي تور أندريه في كتابه (محمَّد، حياته وعقيدته) من أنَّ الأمر وصل بالنبي ﷺ إلى اعتبار ما كان يبدو له من أفكار وقرارات وحياً من الله تعالى، فهذا لا يعدو كونه إلاَّ اتهاماً للرسول ﷺ بالكذب على الله سبحانه وتعالى، وهذا الزعم وما يستلزمه نابع أساسه من إعمال الحدس والتخمين والتكهن. فأين هذا من الحقيقة التاريخية والسيرة الذاتية القائلة: إنَّ محمَّداً ﷺ لم يسجل عليه أحد من أعدائه وخصومه تهمة الكذب على أحد من الناس قبل نبوته فكيف يُقدم على الكذب على الله تعالى بعدها؟!

فالوحي الذي تلقاه الرسول ﷺ من خارج ذاته وكيانه ليس من قبيل الحدس والشعور الباطني ودلالات النفس والفراسة السريعة التي غالباً ما تتأثر بالرياضة الروحية والتفكير المستديم، إنَّما الوحي فيض إلهي زوَّد الله به طائفة من البشر مختارة ليكونوا فيما بعد رسله المبعوثين لهداية البشر إلى الخير بعد أن يجعلهم خلقاً ذوي طاقات سامية مستعدة لتلقي فيوضه وإلهامه، وأن يمدهم من سنا الحقّ وعلاماته ما يكون فارقاً بين الوسوسة الخادعة والإلهام الصادق، وهو أمر مستقل خارج عن ذات الرسول، ولا يملك الرسول من أمره شيئاً أمامه، بل هو عبد مأمور طائع ليس إلاّ.

خصائص الوحي

١. حصوله بالاصطفاء والاختيار لا بالكسب، والسعي، والاجتهاد، والرياضة الروحية، فهو منحة إلهية يختار الله تعالى بحكمته من يشاء من عباده ليكون أهلاً لتلقيه ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فهو يتم تبعاً لمشيئة الله تعالى وحده، فليس خاضعاً في توقيت نزوله أو تحديد مكانه لرغبة الرسول، بل إنَّه حدثٌ تلقائي مفاجئ على حياة مَن اصطفاه الله للرسالة أو النبوة دون سابق توقع أو تطلع، فهذا هو محمَّد ﷺ كان في عزلته عن العالم في غار حراء فاجأه ملك الوحي، وأخذه بقوة يعتصره حتى أجهده، وبينما كان

---

٥٦ انظر: **الوحي المحمدي**، ص٥-٦.

ماشياً طرق سمعه صوت من السماء فرفع بصره إليه، فشاهد جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض، ففزع منه ورجع إلى بيته ترتعد فرائصه، ويتزمل، هذه الحالة وغيرها من الحالات والصور للوحي قد أفادت وأظهرت أنَّ الرسول لم يكن متطلعاً إلى وحي، أو رسالة، أو نبوة، ولم يكن متأهباً لذلك، بل فاجأه الوحي بغتة، ولم يكن في الحسبان، حتى كان يفاجئه ليلاً ونهاراً في سفر أو حضر راكباً أو راجلاً.

٢. إنّه حدث إلزامي: والدليل على ذلك تلك الأعراض الجسدية من احمرار في الوجه وتتابع في الأنفاس، وثقل في الجسم، وتقاطر العرق من جسده في اليوم الشديد البرد، ومن غطيط ورغوة إلى غير ذلك. ومما يدل على إلزاميته تلك الأحوال النفسية من خوف شديد من ملك الوحي في الجولات الأولى حتى خشي على نفسه من الهلاك...

٣. استقلاله عن ذات النبي وكيانه وتفكيره، من الميزتين السابقتين يعلم أنَّ الوحي خارج عن ذات الرسول ﷺ وأنه حقيقة ذاتية مستقلة عن إرادة النبي، وأنه عاجز عن دفعه عن نفسه، وتفيد القرائن والأحوال أنه كان عاجزاً أيضاً عن استحضاره، بدليل ما أصابه ﷺ من هم وغم في أثناء انقطاع الوحي عنه بعدما جاءه في غار حراء، وفي تأخر الوحي وهو في مواقف صعبة، كما في قصة الإفك، وفي الإجابة على بعض الأسئلة الموجهة إليه، وغير ذلك.

٤. مستند الوحي كونه من علم الله تعالى، فإن طبيعة الوحي تختلف في مستندها عن المصادر الأخرى للمعرفة، فإذا كان العقل يستند إلى أدلته القائمة على المبادئ الفطرية في الإنسان لإثبات أنَّ ما قدمه من معرفة صحيح، وإذا كانت المعرفة الحسية تستند إلى التجربة الراجعة إلى العقل، فإن مستند الوحي كونه من علم الله سبحانه وتعالى، وعلم الله جلَّ جلاله مستغن عن الاستعانة بأية وسيلة للوصول إلى معرفة الحقيقة.

إنَّ معارف الوحي فوق مطامح الذات الإنسانية، فالمعارف التي تلقاها الرسول ﷺ عن طريق الوحي جاءت متجاوزة حدود أبحاث الإنسان الذاتية، فصار مستحيلاً اعتبارها من المعارف الشخصية في شيء.

الوحي ونوبات الصرع والهستيريا

يحلو لبعض المستشرقين أن يفسروا ظاهرة وحي الله إلى رسوله عليه الصلاة والسلام بأنها نوبات من الصرع تعتريه بين حين وآخر، وهناك من زعم أنه عليه الصلاة والسلام كان مصاباً بالهستيريا، فقالوا: إنه كان يفقد وعيه، ويسيل منه

العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج منه الرغوة، فإذا أفاق ذكر أنه أُوحي إليه، وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحي الله.٥٧

المؤرخون البيزنطيون وعلى رأسهم وبوجه خاص ثيوفانس هم أول من أذاع في الغرب أسطورة الصرع، فقد كانوا هم المصدر الوحيد الذي تلقى منه الغربيون معلوماتهم الأولى عن الإسلام، وإليهم ترجع أغلب الأساطير التي شاعت في الغرب حوله.٥٨

هكذا نرى المستشرقين ينقلون ويكتبون من غير تروٍ ووعي وإدراك لحقيقة ما يكتبون، ومن غير اختصاص في مجال ما يتناولونه بالبحث، فالصرع والهستيريا مجال البحث عنهما هو الطبّ وحده، فلو استعرضنا الطبّ رأيه في هذين المرضين، لوجدنا أنه قد وضع أعراضاً خاصة بهما، فإذا انطبقت على شخص ما علم أنه مريض وإلاّ فلا.
والآن لنعد إلى سيرة الرسول الكريم ﷺ وهو غير مجهول السيرة قبل بعثته، هل ينطبق عليه مثل هذه الأعراض والتي سأذكرها فيما بعد؟ والجواب: لم يسجل أحد عليه، أو ينقل مثل هذه الأعراض، ولو كان مصاباً كما زعموا لنقلت لنا الأخبار ذلك، ولما لم ينقل إلينا شيء من هذا القبيل تبين لنا كذب هذا الادعاء.

ثُمَّ هل يقبل عاقل أن يكون هذا القرآن الكريم الذي يتناول أدق مسائل العقيدة والتشريع بعمومية وشمولية منقطعة النظير، ويتضمن الحقائق المتعلقة بالكون والخليقة، والتوجيهات السديدة والأغراض السامية والحكم العالية والنظم الرفيعة، وبهذا المستوى الرفيع من النظم البديع والتأليف العجيب، وبهذه الدرجة المتناهية من الفصاحة والبيان، أن يكون هذا القرآن من هلوسة مصروع، وهكذا حديثه الشريف، وهو يتلقاهما من خلال نوبات الصرع؟!!

يقول الدكتور الطبيب مصطفى غالب عن أعراض مرض انهيار الأعصاب (الهستيريا): "من خلال الدراسات الكثيرة التي قام بها علماء النفس توضحت أعراض

---

[٥٧] انظر: **سيرة الرسول في تصورات الغربيين**، جوستاف بفانمولر، ص٢٠. و غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ت) ص١٤٥. و أنور الجندي: **الإسلام في وجه التغريب** (القاهرة: دار الاعتصام، د. ط، ت) ص٣٨. و زكريا: **المستشرقون والإسلام** (لجنة التعريف بالإسلام، الكتاب العشرون، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) ص٣١٣.

[٥٨] **سيرة الرسول في تصورات الغربيين**، بفانمولر، ص٢١.

مرض انهيار الأعصاب (الهستيريا)، ووجد أنَّ المصابين بعد متابعتهم لعدة سنوات يعانون من أمراض عضوية في المخ، صرع، فصام، اضطرابات اكتئابية، قلق عصبي، كما تبين أنَّ العامل الوراثي يؤدي دوره الفعال في أسباب الإصابات الهستيرية ٥٩، فهل كانت هذه الأعراض تنطبق على الرسول، وهو حامل أعظم رسالة عرفها التاريخ؟!. ألم يكن مضرب الأمثال في الصبر، والحلم، ورجاحة العقل، والهدوء، والسكينة؟

لقد شهد بذلك أعداؤه قبل أصحابه.

ويقول الدكتور غالب عن الصرع: يرى بعض العلماء أنَّ معظم المصابين بالصرع كانوا متدهورين عقلياً، لأنَّ إحصائيات الجريمة التي تجريها بعض المؤسسات الدولية قد أوضحت بأن أكثر القتلة واللصوص من المصابين بالصرع.٦٠

ثُمَّ يضيف إلى ذلك قائلاً: "وليس الصرع في حدِّ ذاته سوى العته، وانهيار القوى العقلية لضعاف العقول ذوي القدرة الضئيلة على التطور، الذين يوصفون بالكسل المنافق، والكلام المعسول، والوعود المتسمة بامتداح الذات، ونوبات سوء الخلق، والتذمر المتمرد، والانسحاق، والشعور بالإشفاق على الذات، والشحّ بالجهد، والدسائس الفاسدة، والتظاهر بحب الخير، وهذه الصفات من معالم الشخصية الصرعية، ويمكن أن نضيف الغباء إليها والتبلد الذهني، وأحياناً الدوران أو فقدان الوعي أو حالات التشوش.٦١

فأين الرسول العظيم من هذه الأعراض وهذه الصفات وهو أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً؟!. يتحدث المستشرق ر. ف. بودلي في كتابه (حياة محمَّد) عن الموضوع قائلاً: "يذكر الأطباء أنَّ المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعة، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها (محمَّد) حتى قبل مماته بأسبوع واحد، وما كان الصرع يجعل من أحد نبياً أو مشرعاً، وما رفع الصرع أحداً إلى مركز التقدير والسلطان يوماً. وكان من تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً، أو به مسٌّ من الجنّ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو (محمَّد) ولا

---

٥٩ مصطفى غالب: **الانهيار العصبي "الهستيريا"**، من آراء وأفكار مجموعة من العلماء الغربيين الاختصاصيين (بيروت: مكتبة الهلال، د. ط، ت) ص٦.

٦٠ المصدر السابق، ص٨٤ وما بعدها.

٦١ المصدر السابق، ص٨٥.

شك٦٢. أكتفي في نهاية الحديث عن الموضوع بشهادة هذا المستشرق الذي يدحض هذه الفرية وهذا التهجم الظالم على مقام النبوة.

أمَّا المستشرق غوستاف لوبون فهو الآخر يدلي بدلوه مع الدلاء عساه أن يخرج فرية جديدة من نوع آخر، وتمكن من ذلك حيث عدَّ الوحي هلوسة ٦٣، وبذلك ضرب بعرض الحائط تلك الأخبار الصحيحة حول سيرة الرسول ﷺ، ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ هذا المستشرق الذي أُعجب بكتابه (حضارة العرب) كثير من العرب وبعض المسلمين من غيرهم يُعَدُّ من أخطر المستشرقين على الإسلام وعقيدته، وأن أخطر ما في كتابه (حضارة العرب) هو إنصافه لها، حيث إنه يحاول بذلك اكتساب الثقة به وبدراساته حتى إذا ما وجد الفرصة سانحة دسَّ من الدسائس ما يهزّ الحضارة العربية وأساسها، فهو في هذا الكتاب يفعل ذلك حينما يعدّ الرسول من المهوسين، فإذا كان الرسول ﷺ وهو مؤسس الحضارة الإسلامية مهوساً، فهل يبقى بعد ذلك معنى للحضارة العربية والإسلامية؟! هذا الذي سار عليه من منهج لوبون يسير عليه غيره من المستشرقين في محاولة لكسب ثقة المسلمين بإظهار إعجابهم ببعض الجوانب الإسلامية ثُمَّ يدسون السمّ بمقادير محددة في جوانب أخرى حتى لا ينكشف أمرهم، من أمثال المستشرق ديرمانجيم الذي نراه ينطق بالحق الصراح في قوله: "لقد تحدى محمَّد الأناسي والجن أن يأتوا بمثله، وهذا برهان رسالته بالمعنى الكامل، ولم يكن الأمر في القرآن أن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فإن محمَّداً كان يحتقر الشعراء، ودافع عن نفسه أن يكون واحداً منهم، ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة، وهو الفرق بين وحي الإله وتلقين الشيطان.٦٤

وفي مواضع أخرى نجده يدسّ بشكل واضح.

في الحقيقة أنَّ هؤلاء الطاعنين في الوحي من المستشرقين، والمبشرين الذين ينتمون إلى اليهودية، والمسيحية لم ينالوا من رسولنا ﷺ وحده، وإنما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب، أو صحف، أوحي بها من عند

---

٦٢ **المستشرقون والإسلام**، زكريا، ص٣١٦.

٦٣ **حضارة العرب**، ص١٤٥.

٦٤ محمَّد غلاب: **نظرات استشراقية في الإسلام** (القاهرة: دار الكاتب العربي، د. ط، ت) ص٣١.

الله سبحانه وتعالى، إذ الطعن في وحي خاتم الأنبياء هو طعن في وحي موسى، وعيسى عليهما السلام، وفي الوحي إلى كل الأنبياء الذين جاؤا من قبلهما ومن بعدهما، فالرسول ﷺ ليس ببدع في باب الوحي، وإنما أوحي إليه كما أوحي إليهم ﴿إِنَّا أَوحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ {النساء: ١٦٢}.

هكذا يتضح لنا موقف المستشرقين المغرضين في دراساتهم عن الوحي المنزَّل على محمَّد ﷺ ونبوته أنه موقف الرافضين من أن يكون القرآن وحي الله المنزَّل عليه، بل هو - في نظرهم - من صنع محمَّد ﷺ، وبالتالي أنَّ دينه ليس سماوياً بل ملفق من اليهودية والنصرانية ومن مصادر أخرى، وبذلك تأتي دراساتهم للإسلام والنبوة والوحي مجانبة للمنهج العلمي السليم، وقائمة على جهل وتعصب، ومقررات سابقة موروثة من كتابات العصور الوسيطة، تساق هذه الدراسات من قبلهم لموافقتها، ومن هنا فهي لا تصلح أساساً يحكم من خلاله على هذا الوحي، وتؤخذ منه صورة لا في نتائجها ولا في مناهجها.